نمَاذج تدبُّر القرآن الكريم

عند السَّلَف الصَّالح

(التَّدبر السُّنَنِي أُنمُوذجاً)

الدكتور رشيد كهوس

المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله الذي فطر العالم بقدرته، وأبدع الحكم بإرادته وحكمته، وأوجب على العباد معرفة أوصافه وأحكامه وسننه، وألزمهم امتثال أمره ونهيه وتدبر كتابه والتفكر في آياته، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد أرسله بباهر آياته ومعجزاته، واصطفاه من بريته، وجعله حجة على خلقه، وعلى عترته أهل بيته وصحبه الذين فازوا بصحبته.

أما بعد؛

فيقول الله تبارك وتعالى: چجڃچجڃڃچچچإن التدبر السُّنني للقرآن الكريم غاية في الأهمية، له أثر كبير في حياة الفرد والأمة، وله دور عظيم في تجلية معالم الماضي والحاضر والمستقبل.

ويعتبر تدبر السنن الواردة في القرآن الكريم مناراً هادياً لتسخير الكون بكل ما فيه من أجل فهم أشمل وأكمل للحياة، وامتلاك السبل الموصلة إلى استشراف مستقبل زاهر من خلال تلك السنن الثابتة المطردة الربانية التي تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس المسلمين، ومن أجل إخراج المسلم من العبثية وجعله أكثر إيجابية وأكثر عطاء، وأكثر تأهلاً للاستخلاف في الأرض وإعمارها.

وتكمن الأهمية الكبرى للتدبر السنني في عناية السلف الصالح به، وحثهم وحضهم الأمة عليه؛ لأنه سبب عزتها، ومصدر وحدتها، والسبيل الموصل إلى تحقيق المجتمع العمراني الإسلامي كما كان في عهد التنزيل والخلافة الراشدة...

ورغم ما للتدبر السنني من أهمية عظيمة وأثر كبير في حياة الأفراد والأمة وواقعها إلا أنه لم يحظ بعد بمكانته المرموقة في فكر المسلمين ووعيهم، ولهذا كان الشيخ محمد عبده –رحمه الله- يرجو أن يكون هناك علم مستقل للسنن الإلهية وأن يتدبر المسلمون القرآن الكريم تدبراًسننياً ليستخرجوا منه علم السنن كما استخرجوا العلوم الشرعية الأخرى.

أهداف البحث:

تتلخص الأهداف المرجوة من هذا البحث بما يأتي:

–أولا: بيان مفهوم التدبر السنني وآثاره في حياة الفرد والأمة.

-ثانيا: الحث على التدبر السنني لكونه المخرج من الكثير من المشكلات التي تعيشها الأمة المسلمة اليوم.

-ثالثا: ذكر نماذج من التدبر السنني عند السلف الصالح بغرض التأسي والاقتداء.

منهجية البحث:

للوصول إلى أهداف البحث المرجوة سلكت المناهج العلمية الآتية:

-المنهج الوصفي: الذي يصف عوامل ضعف الأمة المسلمة لما تنكبت عن التدبر السنني للقرآن الكريم.

-والمنهج التحليلي الاستنباطي: الذي يقوم على تحليل النصوص تحليلاً نوعياً؛ بهدف استخراج واستنباط مضامين تربوية مدعمة بأدلة واضحة.

خطة البحث:

لأهمية هذا الأنموذج من التدبر اخترته عنواناًلبحثي المقدم إلى المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم، الذي نظمته الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.

وجعلته في مبحثين:

أولهما: للحديث عن معنى التدبر السنني وأهميته وفوائده وآثاره.

وآخرهما: للحديث عن التدبر السنني عن السلف الصالح من الصحابة وعلماء المسلمين وأئمتهم من بعدهم.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد والرشاد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول:

التدبر السنني: ماهيته وأهميته وآثاره

المطلب الأول:

التدبر السنني وأهميته

١-معنى التدبر السنني وفوائده:

أقصد بالتدبر السنني[1]الوقوف عند القرآن الكريم والتفكر فيه لاستنباط ما فيه من سنن الله تعالى المطَّردة لتسخيرها والانتفاع بها والسير على منهاجها وعدم تنكُّبها.

وقد حض سلفنا الصالح على تدبر القرآن والوقوف عند آياته للانتفاع بها والامتثال لها بما يعود على المرء بالخير والصلاح في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة: فعن ابن مسعود ﵁قال : «لا

---

[1] السنن الإلهية هي: أقدار الله وعهوده الثابتة وعهوده الحقة، وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحدا مؤمنا كان أم كافرا، والتي على مقتضاها يدبر الله هذا الكون.

ويعرفها الشيخ محمد جابري بأنها:"جملة المواثيق والعهود التي عهد الله بها لكل شيء في هذا الوجود. وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر"(التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، ص٦٦.).

ويعرفها الدكتور عبد الكريم زيدان بقوله:"هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"(السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص١٣).

ويعرفها محمد إسماعيل إبراهيم بقوله:"وسنة الله: شريعته وطريقته، وما جرى به من نظامه في خلقه" معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، ص١٥٤.

ويعرفها العلامة يوسف القرضاوي بقوله:"السنن الإلهية هي: القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع" العقل والعلم في القرآن الكريم، ص٢٧٩.

ويقول المفكر الإسلامي الشيخ جودت سعيد في تعريفه لسنة الله: "السنة قانون الله"(العمل قدرة وإرادة، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، ص٧٣).

ويعرفها أ .د. محمد عبد المنعم خفاجي بقوله:"سنة الله هي المنهج الإلهي في تسيير أمور حياتنا، وهي طريقته في تربية الأمم، وهي شرائعه التي يرشد الإنسانية بها إلى الله وإلى الحق". موسوعة ألفاظ القرآن الكريم، ص١٤٢.

تهذوا(٢)القرآن كهذ الشعر ولا تنثروه نثر(٣) الدقل(٤) وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب»[شعب الإيمان للبيهقي].

وإن المتقدمين أعطوا كل اهتماماتهم لفقه الأحكام وقواعد الاستدلال والحجاج في الأصول والفروع، يعني أعطوا كل جهدهم لخدمة أكثر من خمسمائة (٥٠٠) آية (آيات الأحكام)، لكن أين الاهتمام بقرابة خمسة آلاف وسبعمائة وستة وثلاثين (٥٧٣٦) آية، إذا علمنا أن مجموع آي القرآن الكريم (٦٢٣٦)، أين الإلمام بذلك العدد الهائل من الآيات القرآنية التي تتحدث عن السنن الإلهية التي لا تحيد ولا تميل ولا تعرف التغيير ولا التبدل، أين الاهتمام بالقصص القرآني والأمثال والعظات التي جاءت لتبين للناس سنن الهدى والرشاد ليلزموا غرزها وليحذروا تنكبها...

لكن الأمة غفلت عنجل آيات القرآن التي اهتمت بالسنن الإلهية، هذا إذا أدركنا أن مجرد القصص القرآني شمل زهاء ثلث القرآن مما يبين لنا المدى الشاسع الذي أهملناه من فقه السنن، وحصرنا أنفسنا في هذا الجزء اليسير من آيات القرآن الكريم، في الوقت الذي يدرك فيه الجميع أن القرآن الكريم لم يترك مسألة من مسائل الحياة والخلافة في الأرض وإعمارها إلا وتحدث عنها.

إن آيات القرآن الكريم تفيض بالسنن التي أمر الله عباده أن يأخذوا بها في الحياة الدنيا؛ وهي في أكثر من موضع تحض المسلمين وتحثهم على الأخذ بسنن الله تعالى؛ فبينت لهم سنن ولادة الأمم والدول واستمرارها نحو النضج والرقي، كما بينت لهم سنن الهلاك والاندثار بعد القوة والازدهار، وذكرتهم بنماذج من مصير الأمم الغابرة التي تنكبت تلك السنن فتم إهلاكها واستئصالها، كما بينت لهم مصير الأمم التي ستأتي من بعد وهي خاضعة كذلك لتلك السنن المطردة.

ولكن قليلون من يتدبرون كتاب الله تعالى ليستنبطوا تلك السنن التي إن سارت على نورها الأمم والجماعات اشتد ساعدها وترسَّخ وجودها، وإن تخلَّت عنها أصابها الضعف والذبول والانمحاق كما هو حال الأمة اليوم.

فيتحصل من كل ما سبق أنه واجب على المسلمين أن يتدبروا القرآن الكريم تدبراًسننياًليأخذوا بفقهها ويعتبروا بدروسها، ويتبصروا بأنوارها،يقول محمد عبده -رحمه الله-: "إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم، لنستلهم ما فيها من الهداية والموعظة

---

(٢)الهذ: سرعة القطع والقراءة.

(٣)النثر: التساقط والتفرق.

(٤) الدقل: الرديء اليابس من التمر، والمراد أن القارئ يرمي بكلمات القرآن من غير تدبر وتأمل كما يتساقط الدقل من العذق إذا هُزَّ.

على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينهاالعلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها"(٥)، فما سقطت الأمم من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة(٦)، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبُّر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا، فأخذهم الله بذنوبهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين (٧).

وبناء على هذا فإن تدبر القرآن الكريم للتعرف على السنن التي تحكم كل مجالات الحياة لالتزام غرزها وعدم الخروج على سكتها، هو عين التوكل والإيمان، وحقيقة التكليف. "وهي مظهر من مظاهر العدل الإلهي المطلق؛ حيث لا يصح غير ذلك على الله سبحانه وتعالى -فكيف يصح عدلا أن يعط من لا يعمل ويحرم من يعمل؟! وكيف يمكن للإنسان أن يستجيب لأمر دون معالم هادية، وأسباب موصلة إلى النتائج؟!، ولذلك ينبغي أن نعلم علم اليقين أن هذا الكون محكوم بسنن ثابتة مطردة؛ لا يمكن تسخيره والإفادة منه إلا وفق هذه السنن، والناس والأمم والدول في سائر تصرفاتها لا يخرجون من سلطانها"(٨).

ومنخلالالسنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم والسير وفق مقتضياتها تحفظ الأمة كيانها من معاول الهدم، وتقي نفسها من السقوط والانهيار.

وتتبين أهمية التدبر السنني للقرآن الكريم من خلال عناية علماء الإسلام به وحثهم عليه، وقد عدهحجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد الغزالي-رحمه الله- من القسم المحمود فقال: "وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصورٌ عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على

---

(٥) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عمارة، ٩٥/٥. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١١٥/٤،١١٤.

(٦) العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، ص١٧١. بتصرف.

(٧) دروس من القرآن الكريم، محمد عبده، ص١٩٠.

(٨) "المسلمون وفقه السنن.."، مقال لمحمد أمحزون، المنشور بمجلة المنار الجديد، السنة السادسة شعبان ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، العدد٢٤، القاهرة، [٢٦-٣٣]، ص٢٧-٢٨.

سواحله وأطرافه بقدر ما يتيسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والراسخون في العلمعلى اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتعاون تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب"(٩).

يقول سيد قطب-رحمه الله- في بيان أهمية التدبر السنني للكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنظور (الكون): "إن هنالك سنناً ثابتة لهذا الكون؛ يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها"(١٠).

وعلاوة على ذلك فإن من الواجب علينا أن نقرأ سنة الله قراءة ذكية، لا نتبلد مع التقليد؛ ونتدبر تسلسلها التاريخي التكليفي وجريان قَدَرها على كل شيء في هذا الوجود.

والدعوة القرآنية إلى التدبر السنني للقرآن الكريم الهدف منها استخلاص الدروس والعبر التي تستفيد منها الأمة المسلمة وتسترشد بها، لتصحح مسارها العمراني البشري على النحو الذي يحقق لها العيشة الهنية في طمأنينة وسلام، وأمن واستقرار، أي تنطلق من القرآن إلى العمران.

فالسنن الإلهية نور يُهتدى بها في دياجير الظلام، وما أحوج الأمة إليها وهي تعيش في أحلك الفترات التاريخية، اغتُصبت أراضيها، واحتلت ديارها، ودخل عليها العدو في عقر دارها، فهي في أمس الحاجة -بل واجب عليها- إلى هذا الأنموذج من تدبر القرآن الذي ينير لها دروب الحياة كما أناره للسلف الصالح من الرعيل الأول.

ومن هنا فإن الإدراك العميق بأن كل شيء في هذا الوجود يسير وفق السنن الإلهية التي لا تنخرم ولا تحيد، وتوظيف هذا الإدراك إلى واقع العمل حينئذ سيكون الإنسان قادراً أن يسير على المنهاج الصحيحبالتدبر السنني للقرآن الكريم مسترشداًبه، معتبراً بمن سبقه من الأولين، مستفيداً من كل آليات الحياة ومسخرا لها لتحقيق بناء الذات، والحفاظ على الكيان لتحقيق الشهود العمراني.

لأن التدبر السنني للقرآن الكريم يجنب صاحبه الاعتقاد الخاطئ والمخطئ بأن الكون والحياة تحكمهما المصادفة والفوضى والعبثية، بل توقفه على ما أودعه الله فيهما من سنن تجعل سيره على بصيرة، وعمله على هدى، فيحقق الوقاية من السقوط في مهاوي الهلاك والخيبة والخسران.

ولا تقتصر أهمية التدبر السنني على ما يترتب عليه من الجزاء في الدنيا، بل إنه يرجع كذلك إلى ما يترتب عليه من الجزاء في الآخرة.

---

(٩) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، ١/٦١-٦٢.

(١٠) في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الثاني، ج٧، ص١١١٩.

وعليه، فإن تدبر سنن القرآن ومعرفتها والانتفاع بها أكثر أهمية بالنسبة للأمة الإسلامية في هذا العصر أكثر من أي عصر مضى، ذلك أنها لم تصل إلى ما وصلت إليه من تفرق وتشرذم وطائفية وتناحر، وتكالب الأعداء عليها حتى فقدت السيطرة على مقاديرها، إلا يوم أن أهملت التدبر السنني للقرآن الكريم، ولم تأخذ بسننه، ولم تنتفع بها لتحقيق الترقي الاستخلافي في الحياة؛ بما يعنيه من تحقيق لأقصى درجات الفعالية في الترقي الروحي والمعرفي والنفسي والاجتماعي والسلوكي والعمراني المتناغم مع سنن الله ونواميسه في الوجود. وعليه فلا تقدم ولا ترقي ولا نصر ولا تمكين، حتى تأخذ الأمة بالسنن الإلهية في الكون والحياة، وتسير على منهاجها.

وهكذا نجد أن تدبر سنن القرآن والسير على نهجها يجعل الأمة تمشي سوياً على صراط مستقيم، والأمر ليس بالسهولة المفرطة ولا بالتعقيد المعجز، وإنه ليسير على من يسره الله عليه وفتح بصيرته وأمده بمدد من عنده ووفقه للتدبر السنني في كتابه المنزل على خير رسله ﷺ.

ولذلك فإن الغفلة عن التدبر السنني للقرآن تجعل الإنسان يفقد "ميزاته الأساسية، وأمانته التي حمله الله إياها، والسلطان الذي أعطاه الله تعالى له، لتسخير ما خلق الله له. ويصير هذا الإنسان المكرم في أسفل سافلين، بل يصير نفسه مسخراً للذين يعلمون سنن الله"(١١).

ولا يفوتني القول أن من أهم دواعي الاهتمام بالتدبر السنني للقرآن الكريم للوقوف على السنن الاجتماعية المبثوثة فيه هي الوظيفة التي تضطلع بها هذه السنن في علاقتها بالعلوم الإنسانية عامة وبعلم الاجتماع خاصة؛ فمن شأنها أن تشكل مصدراً هاماً لهذه العلوم نعيد على ضوئه النظر في الكثير من نتائجها وخلاصاتها، ونمدها من ثم بنتائج وخلاصات يقينية أشبه من حيث الدقة بمعادلات رياضية وفيزيائية، فتتضاءل الأخطاء نتيجة لذلك، وتتقلص ويصير من الممكن تجنبها وتفاديها.

أضف إليه، أن الظاهرة الإنسانية هي أشد ظواهر الكون تعقيداً لأنها ذات بعدين روحي ومادي. فالبحث العلمي وإن تمكن من تحقيق إنجازات مذهلة فيما يتصل بالعالم المادي الذي يمكن أن نعتمد فيه إلى حد كبير على معطيات الحس، والذي تتفاعل فيه الأسباب والنتائج ثم ينتهي الأمر في هذه الحياة.

كما هو الحال عند الكثير من المدارس ومؤسسيها؛ فمنهم من يمثل الأحداث التاريخية نهراً جارياً بالحضارات يصب في بحر العدم، ومنهم من يتناول وظيفة الإنسان بصفته المحرك الأساس لعوامل الصراع في هذا الكون بغض الطرف عن أي مؤثر كان، ومنهم من يلغي دور الإنسان وفاعليته ويجعله عبداً ذليلاً للحتميات..

أو كما هو الحال عند أصحاب الفيزياء الكمية أصحاب نظرية الفوضى" chaos theory " الذين تاهوا في كهوف الضلال وزاغوا عن هدي السنن الكونية وحادوا عن الطريق المستقيم، تلك النظرية

---

(١١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص٢٢٥.

الفيزيائية التي تعتبر ذلك التنسيق الدقيق والانضباط التام والدقة المحكمة في الطبيعة "فوضى"[١٢] ولم تجد غير هذا الاسم.

لكن هذه العلوم الإنسانية ظلت عاجزة أمام الظاهرة الإنسانية التي تتكون من مادة وروح ويتحد فيها عالم الغيب بعالم الشهادة.

وبإجمال فإن من اتخذ سنن الله مطية في بدايته أشرقت نهايته، وبوركت مسيرته، وثبتت أركان دولته ثبات الكلمة الطيبة التي مثلها القرآن الكريم بشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها[١٣].

ومن نأى عنها، وضل عن سبيلها استدرجه قدر الله من حيث لم يحتسب، وجاءه حتفه من حيث لا يشعر.

وصدق ربنا تبارك وتعالى القائل في كتابه العزيز: **ﭽ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﭼ**[سورة فاطر: من الآية٤٣].

٢- الحث على التدبر السنني للقرآن الكريم:

إن النص القرآني لم يأخذ حقه بعد من التدبر السنني باعتباره كتاباً يوجه حياة الناس وفق سنن إلهية ثابتة ومطردة، يقول الله تبارك وتعالى: **ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﭼ**[سورة محمد: ٢٤]، فالله تبارك وتعالى يستنكر على المنافقين الذين تراكم الران على قلوبهم عدم تدبرهم القرآن الكريم والوقوف عند سننه وآياته ومواعظه ودروسه وعبره وحججه القاطعة وبراهنه الساطعة، لتزال الغشاوة عن قلوبهم، فيدخل النور إليها، فتستنير بصيرتهم، ثم أتبع هذا التساؤل الاستنكاري جملة من سننه الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير: سنن الهدى والضلال، سنن الكفر والإيمان، سنة الله في الذين ينكصون على أعقابهم، سنة الله في المنافقين وفضحهم، سنة الله في طاعة الرسولﷺ، سنة الله في جعل العاقبة للمؤمنين المتقين، سنة الله في البذل والبخل، ويختم السورة بسنة الله في استبدال الأقوام: **ﭽ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﭼ** إذن أعقب أربعة عشر آية بعد حضه على تدبر القرآن الكريم بين فيها سننه الثابتة المطردة في خلقه، مما

---

[١٢] ها هو علم الفيزياء الكمي يقف عند النقطة التي فقد فيها "موريس دي فرجي" الحبل الرابط بين العوامل المؤثرة في سير حركة التاريخ؛ فلتتعانق علوم الأرض المنقطعة عن الأمر الرباني، ولتعلن عجزها في مواصلة السير، ولتبرأ إلى الله من حولها وقوتها لتدرك أن عقيدة: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾(الأعرف: ٥٤) لهي الحل النهائي لإدراك الترابط بين كل سنة وأخرى من سنن الله في الكون.

[١٣] السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، ص١٤٠.

يتبين لنا دعوته إلى التدبر السنني للقرآن الكريم الذي يقي صاحبه نار الجحيم ويجعله من السعداء ومن أهل اليمين في النعيم المقيم.

وملاك الأمر أن الله تبارك وتعالى خصص الكثير من سور القرآن الكريم للحديث عن قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابًا أو سلبًا؛ حين اختارت لنفسها طريقًا معينًا، ولينبهنا كذلك إلى أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

وهكذا فإن ما وقع للأمم والمجتمعات الماضية "التي تكررت وقائعها رغم اختلاف أشكالها وتباين الظروف الزمنية والمكانية التي وقعت فيها، يسجل القرآن الكريم وجود قانون أو سنة كونية مطردة تحكم سير هذه المجتمعات كما دل على ذلك استنطاق جزئياتها؛ إذ يصرح القرآن أن لله سننًا في الأمم والجماعات، يدعو إلى التفكير فيها والتدبر في مغزاها واكتشاف دلالتها الاجتماعية ولمس معانيها التاريخية...فالحديث القرآني يكشف على أن هناك حوادث تاريخية متشابهة في دلالتها ومضمونها وإن اختلفت في شكلها، وهذا التماثل هو الذي يضمن لهذه الحوادث نوعاً من التكرار والاطراد، ومن ثم يخبر القرآن الكريم أن هذا الاطراد غير قابل للتبديل والتحويل...

وهذه السنن لها وظيفة اجتماعية هامة فهي تكشف عن أسباب الخلل وتزيل الستار عن أسباب الدمار وتثير في الإنسان فطرة الخير والصلاح، وتدعوه إلى الاستقامة ومراجعة مواقفه ووقفاته والعمل على ضبط حركاته. ومن جهة تكشف هذه السنن عن تجربة تاريخية كاملة تجد فيها الشعوب والجماعات ما ينير طريقها ويفتح بصيرتها للوقوف على نتائج اختيارها"(١٤).

إن الفهم العميق لسنن الله في الكون يمكننا من دراسة الأحداث دراسة متأنية تنظر للقرآن من زاوية: **چڎڈڈچ**[العلق: ٢] وتنظر للكون من زاوية: **چئدى يئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي چ**[الروم ٥٠] .

وهي الرؤيا التي تجعلنا نعيش تلك الرابطة القوية والعلاقة المتينة مع الله ؛ فهما لفرائض الوقت ومتطلبات ظرفي الزمان والمكان، بل نتعداها لنلمس عن كثب ترابط الأشياء بمسبباتها حتى نكون على بينة من ربنا، ونجنب أنفسنا أسباب سقوط الحضارات وتقلبات أيامها، ونكون بعلم على بينة من أسباب الهزائم ودروبها، لنرى وبصدق بأننا أمام عالم مجنون يبذر خيرات البلاد، ويبددها عبثا، ويهدم الحضارات، وينتحر وهو مصر على ذلك، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود.

---

(١٤) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد محمد أمزيان، ص١٨٩-١٩٠. بتصرف يسير.

وإذا تسلحنا بسلاح التدبر السني والفهم عن الله مقتضيات سننه الكونية والقرآنية وترابطهما الوثيق، لهذه بتلك؛ كنا على بينة وعلم من ربنا وأسعفنا ذلك لدخول باب التاريخ لنزداد يقينا وتصديقا لكتاب ربنا.

ولئن جعل الله لكل شيء في هذا الوجود قدراً، ولكل شيء حكمة وغاية؛ ولكل شيء أجلاً، وخلق كل شيء بقدر؛ إذ لا عبثية في نظام الله، فيبقى إدراك حكمة الحكيم في كل شيء، ومن هنا ندرك أغوار مضامين الآية : **ﭽﺠ ﺣ ﺤ ﺥ ﺦ ﺧ ﺨ ﺩ ﺪ ﺫ ﺬ ﭼ**[الملك : ٢٦].

وقد يسر لنا أمر تدبر القرآن، وطلب منا أن نقرأ الآيات القرآنية من زاوية **ﭽﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﭼ**[العلق: ١].

كما طلب منا النظر إلى الآيات الكونية من زاوية **ﭽﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﭼ** [الروم ٥٠] .

فرحمة الله لا يمكن إبصارها، ولكن أثارها تبقى بارزة فالأرض،باتت خاشعة قاحلة فأنزل الله عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج.

"ومهما يكن من أمر فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية، وحدثنا عن الماضي في جل مساحاته لكي ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان (الحكمة) من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري مستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلك المبادئ التي سماها (سنناً)، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة، ونزوعنا المستقبليّ.

ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقي المتعة في نفوس المؤمنين، كما هو الحال في أي نشاط فني، قبل أن تبرز للعيان الاتجاهات التعليمية الحديثة في ميادين الفنون، إنما جاءت لكي (تعلمهم) من خلال تجاربهم الماضية و(تحركهم) عبر الأضواء الحمراء والخضراء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزدحم الطويل "؛ولتكون نبراساً يستضاء به، ويقتبس منه صدق المسار أو انحرافه.

والقرآن الكريم كتاب الله تعالى يحثنا على تدبر سننه القرآنية والكونية حثاً لا مزيد عليه في سبع أوامر مفادها:

١ -**ﭽﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ**[سورة الأنعام: ١١].

٢ -چںڻڻٹڈۀۀ ہۀ ہچ[سورة النمل: ٦٩].

٣-چڈۀۀہ ۀہۂ ھھ ھھےے ۓۓ ڭڭڭۇۆۈچ[سورة العنكبوت: ٢٠].

٤-چاٌٻٻٻپ پ پپپپپپ ٺٺچ[سورة الروم: ٤٢].

٥-چڱڳڳڳڱ ڱڱڱں ڻ ڻڈچ[سورة آل عمران: ١٣٧].

٦-چچڇڇڇڇڇچچچچڍڍڎڎڎڏڏژژڙک کککگچ[سورة النحل: ٣٦].

ولم يكتف سبحانه وتعالى أن أمرنا بتدبر السنن القرآنية والكونية لندرك عاقبة الأمور؛ بل استنكر علينا قعودنا لنلمس عن كثب ما يزيدنا يقينا ويعطينا قوة إيمان لا تتزلزل عندما تزيغ قلوب فريق من الناس ويرهبون المخلوقين أشد خشية من الله القوي العزيز، والله أحق أن نخشاه، لنستمع لكتاب ربنا وهو يرتل على مسامعنا آيات بينات –لم نتدبرها التدبر المطلوب- تستحث هممنا للسير في الأرض في مهمة تدبر سنني وبحث تاريخي يستكشف سنن الله في كونه ويعيها ويوظفها في مخططاته المستقبلية:

چڱڱڳڳڳڱڱڱڱںںڻڻڈۀۀ ہ ۀہۂ ھھ ھھےے ۓۓ ڭڭڭچ[سورة يوسف: ١٠٩].

چې ې ې ۋ ۋ ۉ ۉ ۉ ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى یچ[سورة الحج: ٤٦].

چڍڍڌڌڎڎ ڈژژڑڑک ککک گگگگ ڳڳڳڳڱ ڱڱ ںںڻ ڻ ڈۀچ[سورة الروم: ٩].

چی ی ی ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم حج حم خج خح خم سجچ[سورة فاطر: ٤٤].

چژ ژ ڑ ڑ ک کککگ گگگ ڳڳڳڳڱڱڱڱںںڻ ڻڈۀۀ ہ ۀہھچ[سورة غافر: ٢١].

چڱ ڱ ڱڳڳ ڳڳڳڱ ڱڱڱں ں ڻ ڻ ڈۀ ہۀ ہہ ھ ھچ[سورة غافر: ٨٢].

چئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ئج ئح ئم چ[سورة محمد: ١٠].

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة:"إن طلب السير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، جعله النص الإلهي من الفروض الكفائية التي تُفضي إلى التبيُّن والتبصُّر، والاهتداء إلى السُّنن الاجتماعية في السقوط والنهوض، واختزال التاريخ الإنسانية، وتحقيق الاعتبار، وإضافته إلى عمر الأمة المسلمة وتجربتها؛ لتحقق بذلك الوقاية الحضارية، وتتعظ بأحوال السابقين"(١٥).

---

(١٥) الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء، ص٨٥.

هكذا رُسم لنا المنهاج، وخُطت لنا الطريق، ووضعت لنا قنواتٌ من شأنها أن تعيد الأمة المستضعفة إلى عزها ومجدها وكرامتها، وتأخذ بيدها إلى شاطئ النجاة وبر الأمان، إنْ تدبّرنا الكتابين المنظور والمسطور.

فهل تعيها أذن واعية، وتستخلصها أمة راضية مرضية، أم نتمادى في غيِّنا وطغياننا ظنا منا بأننا على غير هدى، وأن هذه مجرد أساطير الأولين؟

ولله در الإمام ابن القيم –رحمه الله– القائل:

فتدبَّرِ القرآنَ إنْ رُمتَ الهُدَى　　　فالعلمُ تحتَ تدبرِ القرآنِ(١٦)

المطلب الثاني:

أثر التدبر السنني في إحياء الأمة

لقد أصيبت الأمة المسلمة اليوم بذُلٍ وهوان، وتفرقٍ وخذلان، وتكالب الأعداء عليها من كل حدبٍ وصوب، فنهبوا ثرواتها، وسلبوا خيراتها، جزاءً وفاقاً على تنكُّبها عن التدبر السنني للقرآن الكريم، فتقاعست الهمم ونكست الرءوس وتقاعد الناس عن البحث سبل الخلاص، فلا تكاد تجد إلا الأماني المعسولة، وانتظار السنن الخارقة للعادة دون الأخذ بسنن الله الجاريةوعدم التعامل معها بشكل صحيح وإغفالها وعدم إدراك كنهها والتقصير المعرفي بها مما أدى إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والازدهار، حتى صاروا غرضاً للغزاة الذين يتربصون بهم الدوائر من كل صوب وأوب.

ولذلك يعتبر الزيغُ عن سكة التدبر السنني للقرآن الكريم، والعدول عن كشف ما تضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة التي تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة وتنأى عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه الهمم إليه مما أورثنا التأخر عن الركب الذي نعيشه ونعاني منه.

وإن عملية الإحياء والتجديد تحتاج إلى التدبر السنني للقرآن الكريم، تدبراً واعياً يهدي إلى سبيل الرشاد، يحيي الأمة ويكشف عنها الغمة، ويزيح عنها الظلمة، وعلى ضوئه –التدبر السنني– وفي نوره تبني مجتمعها العمراني الإسلامي وتستنبط منهاجها،كما فعل سلفنا الصالح لما تدبروا القرآن الكريم تدبراًسننيا جعلهم على رباط وثيقبسنن الله وقوانينه. فمنهااستمدوا الخِبرة والأسوة، ومنها استقوا الرحمة والحكمة، وبفقهها بنوا مجتمعاً إسلامياً صالحاً ومنعوا أنفسهم وأمتهم من السقوط في مستنقع الهلاك، وحفظوها من معاول الهدم.

---

(١٦) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص٥٥، بيت رقم: ٧٣٦.

ولهذا فإن الأمة الموعودة بالظهور والخلافة في الأرض كانت ولا تزال بحاجة إلى التدبر السنني وأخذ العبرة من الأمم الغابرة والأقوام السابقة والحضارات البائدة.

يقول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون –رحمه الله– في سنة الله في الأمم والأفراد والجماعات:"ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة ؛ وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول **چئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئى ئى ئى ئى ئى ئى ی ی چ** [سورة غافر: ٨٥]"(١٧).

وبناء على ذلك فإن "الإنسان حين لا يهتدي بسنن الله، ولا يهتدي بالعلم والهدى الذي جاء من عند الله يميل به هواه؛ لأنه فقد الميزان، فصار سهلاً عليه أن يميل مع هواه حيثُ لا يخشى سنة ولا علما. فكيف يخشاها!... وهو لم يشعر بقوانينها في الحياة، وأسلوب كشفها للباطل! ... فلذا نجد أن ضيق نظره، والمحدودية في إدراكه، يسهلان عليه اتباع الظنون وما تهواه نفسه، دون أن يخشى نكيرا"(١٨).

والفترة الحرجة التي تجتازها أمة الإسلام اليوم "تحتاج إلى رؤية واضحة لتاريخها يضيء لها معالم الطريق وآفاق الطموح.

ونحن أمة عريقة مرت بها على مسار تاريخها الطويل عصور ازدهار وانحطاط، سايرت يقظتها ووعيها، أو غفوتها وخمولها، وهي لا تستطيع أن تحمي وجودها وتتابع سيرها على مراقي تقدمها، ما لم تستقرئ ماضي خطواتها على درب الزمن، وتدرك سر قوتها وبقائها، وعوامل ضعفها وذرائع تخلفها"(١٩).

إن ما تعيشه الأمة المسلمة اليوم من تفكك وانحطاط وانهيار... لا يرجع إلى النص القرآني بل إلى الواقع الاجتماعي الذي لم يستنر بالسنن الإلهية في التغيير، إضافة إلى ضعف علاقة المسلمين بالقرآن فهماً وتدبراً.

ولذلك لم يكن المسلمون على مستوى الأمر الإلهي(اقرأ) الذي ربط بين قراءة الكتاب المنظور (الكون) وقراءة الكتاب المسطور (القرآن)،فجعل القراءة باسم الله الذي خلق الإنسان من علق والذي

---

(١٧) المقدمة، ص٣٥.

(١٨)حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص٢١٣.

(١٩)القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص٢٦١.

علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، فلم يفد المسلمون لا من قراءة المسطور ولا من قراءة المنظور، فجهلوا السنن الإلهية التي تحكم الحياة، وتوقفوا عن السير في الأرض استنباطاً لسنن الاجتماع والاعتبار بما أصاب الأولين والاتعاظ بجهل المعاصرين.

ولقد أدرك سلفنا الصالح مغزى السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم في استشراف المستقبل الزاهر بالنظر إلى أن هذه السنن ثابتة ومطردة لا تحابي أحداً ولا تتخلف عن مسيرها إلا وفق علم الله تعالى وحكمه وحكمته ومشيئته، ولقد حضوا الأمة وحثوها على وجوب التفكر في الكتاب المنظور وتدبر الكتاب المسطور والنظر بعين البصيرة إلى الآيات المبثوثة هنا وهناك، للاستفادة منها، والاستنارة بنورها والسير على منهاجها لبناء مستقبل أمة الإسلام.

إن القرآن الكريم مليء بسنن الاستخلاف والعمرانالكفيلة بأن تحيي الأمة وتنشئ جيلا صالحاً يقود الناس إلى صراط الله المستقيم، لكن المشكلة ليست في غياب المنهاج الذي يضبط ولكن في العقل الذي يدرك والقلب الذي يتحرك والهمة التي تعمل وتنفذ ما أسفر عنه تدبر سنن القرآن وآياته.

إن الجيل الخالد من الصحابة ﷺ ما تحققت له السيادة والريادة والصدارة، وفتح البلاد وقاد العباد بأمر الله تعالى؛ إلا بتدبره القرآن الكريم واستيعابه له استيعاباً عملياًفكان يربط العلم النافع بالعمل الصالح، من هنا استطاعواﷺأن يبنوا عمرانا بشريا إسلاميا وينشئوا جيلاًقرآنياً خالداً، ينشر نور الإسلام في ربوع الأرض كلها.

وإن واقع الأمة المسلمة اليوم محزن لهجرانها للقرآن الكريم قراءةً وتدبراً، حتى كاد ينطبق عليها قول الله تبارك وتعالى: ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭼ[سورة البقرة من الآية: ٧٨]، أي لا يعلمون من الكتاب إلا التلاوة في المناسبات والقراءة على الأموات، فلا يعرفون معانيه وسننه ولا يتدبرون آياته.

وهكذا ركزت الدراسات القرآنية على جانب ضيق من علوم القرآن، وإن كانت له أهميته، لكن الاقتصار عليه وإغفال التدبر السنني والتفكر في الآيات المبثوثة في الكون، فصل غير مبرر فالله تعالى يقول: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﭼ[سورة ص الآية: ٢٩]. وكان من نتائج ذلك الفصل أن غاب الفقه السنني، وتحول القرآن إلى وسيلة للتزيين أو القراءة على الأموات أو لعلاج الأمراض المستعصية وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه !؟ وقد نتج عن ذلك اضطراب في منهج التعامل مع القرآن الكريم فهما وممارسة.

والقرآن الكريم ذكر لنا أحوال الأمم السابقة والمجتمعات الغابرة، لكن المسلمين يمرون على تلك الآيات القرآنية ولما يتدبروها، يحدثهم القرآن عن أمم اندثرت لأنها لم تأخذ بسنن البقاء، لكن المسلمين يسيرون على نفس سنن الزوال ولم يتعظوا بغيرهم من الأمم...

ومع ذلك فإن سنن الله سائرة بالجميع فقهوا ذلك أم جهلوا، ومن يسمع كلام الله ويدبره ويصدق كلمته ويستنر بحكمته تعالى يستطعْ وحده أن يساير سنن الله في خلقه على بصيرة من حتمية القدر، وهي غيب يؤمن به، على بصيرة أيضا بارتباط النتائج بالأسباب، وارتباط نصرة الله للعباد بنصرة العباد لله.

ولهذا فتدبر سنن الله في القرآن الكريم كفيلة بأن تكتشف مواطن الخلل وتحصر آلام الحاضر وهزائمه ونكساته وانكساراته في أبعادها النسبية.

لذلك فالتدبر السنني للقرآن الكريموالوقوف عند آياته –بهذه النظرة الثاقبة والعقلية الواعية–تستطيع الأمة أن تدرك سنن النصر والتمكين والاستمرار والاستقرار فتأخذ بها، وتدرك سنن الهزيمة والتدمير والانهيار والانمحاق فتبتعد عنها، فتقتفي أثر السلف الصالح في تدبر سنن الله، وتجتنب سبل المجرمين المفسدين، "كما هو مقرر –بأن التاريخ يعيد نفسه– فمن عرف سنن الله في خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى بخلاف من يجهلها، لأن من يجهل مصدر الأحداث وسنن الله ﷻ فإنه يكون في حيرة وقلق لا يعلمه إلا الله!!" (٢٠).

المبحث الثاني:

التدبر السنني عند السلف الصالح

المطلب الأول:

التدبر السنني في عهد التنزيل والخلافة الراشدة

لقد كان رسول الله ﷺ أسوة وقدوة في تدبره للقرآن الكريم عامة ولسنن خاصة، وكانت كل تصرفاته تطبيقاً وامتثالاً للسنن القرآنية، كما كان ﷺ يرشد أصحابه إلى سنن الله في من سبقهم بالإيمان من أتباع الأنبياء والمرسلين، ليحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، ويحذرهم من السير على سنن المكذبين والظالمين والمنكرين ليبتعدوا عنها ويجتنبوها، ويبين أسباب مرض الأمم السابقة وهلاكها وحلول عقاب الله فيها، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة إذا ساروا على سكة السنن الإلهية.

---

(٢٠) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي، ٢٣/١.

فاستجاب الصحابة ﵃ لنبيهم ﷺفتدبروا القرآن الكريم تدبراًسننياًفاكتشفوا سنن الله وتفاعلوا معها، وتعرفوا عليها، وانتفعوا بها في حياتهم،فلم يتمنَّوا الأمنيات، ولم ينتظروا اختراق العادات، دون بذلِ الجهود والمساعيوالأخذ بالسنن.

لقدكان رسول الله ﷺ، في كل في أموره اليومية وفي كل أحواله في مكة والمدينة وفي الحرب والسلم، يتدبر سنن الله، ويتعرَّف عليها؛ من أجل تسخيرها في خدمة دين الله وعباد الله، وعند توقُّف الأسباب المادية يَمُدُّ الله نبيَّه بما يعطل أثر الأسباب المادية لنبيه الكريمﷺ، بعد استفراغ الوُسع، وبذل الجهد.

وهذا أنموذج للتدبر السننيفي عهد النبي ﷺ: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال أقبل علينا رسول الله ﷺ. فقال: «**يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ؛ فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**»(٢١). وقد تناول هذا الحديث الشريف مجموعة من السنن الإلهية في الذنوب والمعاصي والعهود والحكم، وبإجمال تناول سنن الله في العقوبات.

وعن خباب ﵁قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهْوَ في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ! فَقَعَدَ وَهْوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: «**لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ**»(٢٢). واشتمل الحديث على سنن الابتلاء والثبات على الحق، والتمكين لدين الله.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ –طبقا للتوجيهات القرآنية والإرشادات النبوية– يتدبرون القرآن الكريم ويقفون عند سننه، ويقرأون آياته قراءة واعية تمثل سنن القرآن وتعتبر من دروسه وعبره، وبتدبرهم السنني للقرآن الكريم تفقهوا في سننه وكانواعلى معرفة واسعة بها، كيف لا؟ وهم عاشوا مع رسول الله ﷺ كل مراحل التأسي والبناء، والتربية والجهاد، والهجرة والنصرة، والتبليغ والتدافع، والدعوة وبناء الأمة، فتمثلوا منهاج رسول الله ﷺ في التدبر السنني، فانتفعوا بها في حياتهم وفتوحاتهم ودعوتهم، ولقد كان

---

(٢١) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح٤٠٨٠، قال الألباني: حديث حسن.

(٢٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه ﵃، ح٣٦٣٩.

تدبرهم السنن الإلهية والتزامهم غرزها أول أسباب نجاحهم في حياتهم الفردية والاجتماعية، وما أكرمهم الله به من النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، وتوحيد الكلمة وجمع الصف، وبناء القلوب، ونشر دين الله تعالى في الأرض.

والذي ميّز هذه المرحلة هو الاهتداء العملي والتأسي برسول الله ﷺ في التدبر السنني والتطبيق العملي لهذه السنن في واقع الحياة، على عكس المراحل المتأخرة التي اهتمت بالكتابة في فقه السنن.

وإلا فلو خالفوا السنن الإلهية وتنكبوها لما تحقق لهم كل تلك الانتصارات في ذلك الزمن القصير، حتى صاروا أنموذجاً خالداً في تاريخ الإنسانية كلها.

ولذلك لما حل الطاعون بالشام رجع الفاروق عمر ﷺ بالناس ولم يدخلها، فقَالَ له أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ: "أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ! فَقَالَ عُمَرُ: "لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ! نَعَمْ **نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ**"(٢٣). وهكذا كان الفاروق ﷺ فقيها في السنن، وأخذ بسنن الأسباب للحفاظ على الناس من إصابتهم بالطاعون، وهذه نتيجة تدبرهالسنني للقرآن الكريم.

ولما أمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ سعد بن أبي وقاص ﷺ بالرحيل من زرود(٢٤) إلى العراق استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه بالوصية الآتية: ((أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة....)) (٢٥). هذا جزء من الوصية العمرية لسعد ﷺ، تبين مدى تفقهه في السنن الإلهية وتدبره السنني للقرآن الكريم، وإدراكه حقيقة سنن الله في النصر والهزيمة والذنوب والمعاصي والطاعات..

ولما تولى أبو بكر الصديق ﷺ الخلافة جاء في خطبته التي استفتح بها عهده:"... لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء..." (٢٦). مما ينم عن تدبره السنني للقرآن الكريم، حيث أدرك جملة من سنن الله في الجهاد والقعود والذنوب والموبقات...

والحاصل أن الدعوة إلى التدبر السنني شغل من القرآن الكريم مساحة واسعة، وحظي باهتمام سيد الوجود ﷺ وصحابته الأكرمين من بعده ﷺ، فما ذلك إلا لماله من أهمية بالغة، ومكانة عظيمة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

---

(٢٣) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح٥٣٩٧.

(٢٤) زرود: موضع بطريق مكة بعد الرمل.

(٢٥) انظر: الجزء الأول من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

(٢٦)البداية والنهاية، لابن كثير، ٥/٢٦٩.

لقد تدبر سلفنا الصالح القرآن الكريم، فاستوعبوا سننه ومقاصده، وامتثلوها في حياتهم، فتحققت لهم السيادة والريادة، ففتحوا البلدان وفتحوا مغاليق القلوب، ودانت لهم الجبابرة والأكاسرة، ونشروا الإسلام في ربوع الأرض كلها، وهكذا كان لتلك السنن الإلهية التي تدبروها أثر كبير في تشكيل العقلية الإسلامية التي استفادت من سنن الله في الكون والحياة، ثم سخرتها بما عاد عليها بالنفع والصدارة في الحياة.

لقد كان جيل القرون الخيرية الأولى يتعامل في السنن بشكل علمي وتلقائي لأنهم تدبروا القرآن الكريم.

وقد سار السلف على خطى رسول الله ﷺ فأوصوا بالتدبر وضربوا لنا فيه أروع الأمثال.

المطلب الثاني:

التدبر السنني عند السلف من علماء المسلمين

إن جهود علماء الإسلام الأوائل لم تؤسس علما مستقلا يُعنى بالتدبر السنني على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأخرى التي اجتهد فيها علماء الأمة المتقدمين؛ تقعيداً وتنظيراً وتطبيقاً وممارسة.. فقد كان حضور هذا العلم ضئيلاً في مؤلفات المتقدمين إلا في شذرات متناثرة هناك وهناك...

إلى أن ظهر الجهد النوعي المتميز الذي أبدع فيه مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ) –في مقدمته وتاريخه– في صورة علم العمران البشري والذي أسس به لعلم سنني عمراني حضاري فريد، كان نقطة تحول عظمى في التعامل مع علم السنن الإلهية، والاشتغال به بصورة منهجية موضوعية، انطلاقاً من التدبر السننيلآي القرآن الكريم.

ومن السلف الصالح من علماء المسلمين الذين تدبروا القرآن الكريم تدبراًسننياً حجة الإسلام الإمام الغزالي (٤٥٥هـ-٥٠٥هـ)-رحمه الله- صاحب دائرة المعارف الفريدة والنفيسة "إحياء علوم الدين"، الذي قسم العلم إلى محمود ومذموم، واعتبر علم السنن وتدبرها من أجل العلوم وأنفعها، ومن القسم المحمود.

ولقد أكد الإمام الغزالي أهمية التدبر السنني الذي عبر عنه بأفعال الله وصفاته وسننه وحكمته... واعتبره بحراً زاخراً يتطلب بذل الجهود والمساعي للبحث عن درره وجواهره ومكنونات أصدافه...

وهناك أقف وقفات مع قبسات من درر فكر السلف الصالح من علماء المسلمين من القرون الماضية، يحضون الأمة على التدبر السنني للقرآن الكريم:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(٦٦١هـ-٧٢٨هـ)-رحمه الله-:"فأُمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، ومن قبلها من الأمم، وذَكَر -الله تعالى- في غير موضع أن سُنته في ذلك سنةٌ مطردة، وعادةٌ مستمرة، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا سُنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم"(٢٧). ومن يتصفح كتب ابن تيمية يجد أثر التدبر السني في صفحاتها واضحاً.

ويقول: "وذلك أن الله تعالى قال:چچ چ ڇ چ ڃ ڃ ڃ چ چ چوقال:چچ چ چ چ چ چ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ چوقال:چڈ ۀ ۀ ۀ ہہ ھ ھ ھچ[المؤمنون: ٦٨]وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى:چہ ھ ھ ھ ے ے چ[يوسف: ٢]وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك،وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباًفي فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم! ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر"اهـ.

ويقولتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتضع في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه"(٢٨).

---

(٢٧) مجموع الفتاوى، ٤٢٥/٢٨.

(٢٨) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ٤٥١/١.

فهذه الفقرة تعبر عن التدبر السنني عند الإمام ابن القيم، حيث يعتبر تدبر سنن القرآن يعود على العبد بالمنافع الآجلة والعاجلة، ويضمن له صلاح دينه ودنياه، والنجاة في آخرته، ثم تحدث عن فوائد التدبر السنني الذي يطلع العبد على مجموعة من سنن الله في الخير والشر والدنيا والآخرة والسعادة والإيمان، وسنن قيام الأمم وانهيارها، وسنن النفس وما يجول في خلجاتها، ثم السنن الموصلة إلى الله تعالى، فالسنن التي تصد عن سبيله، ثم مقاصد أفعال الله جل وعلا..

ويضيف في موضع آخر قائلا:"فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسبابوالأعمال، ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلاً منه، وعجزاً وتفريطاً وإضاعة، فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلاً، بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسانأن يعيش إلا بذلك فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمهرشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمانوالأعمال الصالحة، فهذا وزن المخوف في الدنيا وما يضاده، فرب الدارين واحد وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضا ولا يبطل بعضها بعضاً، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها، والله المستعان، لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه؛ أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً، ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن؛ فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة، ثم السنة فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما من غيرهما وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عياناً، وبعد ذلك فإذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته،طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺحق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر"[٢٩].

وهذه الفقرة تنمُّ عن تدبر سنني للقرآن الكريم وفهم عميق لآياته، ونظرة شمولية لقوانينه، فانظر كيف تدبر الإمام ابن القيم القرآن الكريم تدبراًسننياً أدرك من خلاله أنه غنيٌّ بالسنن الإلهية الكونية والأمرية، الكلية والجزئية، فضلا عن السنن الاجتماعية والنفسية والتاريخية... واعتبر الفقيه الكامل من تدبر هذه

---

[٢٩] كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ص١٠-١١.

السنن وتفقه فيها، ثم جعل طريق تحقيق السعادة في التدبر السنني للوقوف عند سنن الله في الخير والشر، والأمم الغابرة وسنن الله في أيام الله والتاريخ وسننه في الآفاق، وسننه في أهل طاعته وسننه في أهل معصيته.

بل اعتبر تدبر القرآن الكريم مفتاح السعادة حياة القلب حيث يقول:"ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب"(٣٠).

ويقول:"فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاجا إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآيةإلى الصباح (...) ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه"(٣١).

إن الوسيلة الأولى لإصلاح النفس وتزكية القلب والوقاية من المشكلات وعلاجها هو التدبر السنني للقرآن الكريم، لكونه مشتملاً على جملة من سنن تغيير ما بالأنفس وإحياء القلوب والتدرج في مدارج السالكين إلى الله تعالى... وعليه فمن أراد النجاح والفلاح والسير إلى بلاد الأفراح ما عليه إلا أن يسلك طريق تدبر القرآن الكريم تدبراً سنناً سلوكياً عملياً...

لقد بقي التدبر السنني تطويه الأَيام والعصور حتى العصر الحديث حيث بدأ بعض مفكري الإسلام يفكرون في هذا العلم وينبهون إلى أهميته ويحثون على الاهتمام به، ومن هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨م –١٨٩٧م) الذي انتحى في كتابة مقالات العروة الوثقى منحى يؤكد وقوفه على كثير من السنن الإلهية في الكون والحياة ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقي الأمم وتدليها وقوتها وضعفها... وذلكمن خلال تدبره القرآن الكريم.

وتبعه في ذلك الشيخ محمد عبده(١٢٦٦هـ-١٣٢٣هـ) في العروة الوثقى وما نقل عنه الشيخ رضا في تفسير المنار، فهو منذ بدايات دعوته في الإصلاح يضع السنن الإلهية في ذهنه ؛إذ الإصلاح والتغيير بني على سنن إلهية ثابتة ومطَّردة وماضية لا تتخلف، ولم يقف عند هذا الحد فقط، بل حث على

---

(٣٠)حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ص٤٨.

(٣١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ١٨٧/١.

الاهتمام بتدبر القرآن الكريم للوقوف على السنن الإلهية وتدوينها والعناية بها، وتأصيل علم الاجتماع على قواعد إسلامية قرآنية متينة فيقول: "إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون لهم قوم يبينون لهم سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد عليها القرآن بالإجمال،وقد بينها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله –تعالى– من أهم العلوم وأنفعها والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لاجتلائها ومعرفة حقيقتها"(٣٢).

ويضيف قائلاً: "إن علم السنن أعظم الوسائل لكمال العلم بالله –تعالى– وصفاته ومن أقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه،وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء وإنما يرجى الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعاً وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في نظرته وهداية كتابه... وإن في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة على بصيرته في هذا العلم"(٣٣).

ويضيف: "لقد جاء في القرآن الكريم الكثير من قواعد هذا العلم،فغفل أكثر المفسرين عنه ولم يهتد إلى فقه بعضه إلا القليل منهم ؛ إذ لم يكن هذا العلم مدوناً في عهدهم فينبههم إلى ذلك"(٣٤).

ويضيف قائلاً:"إن لله في الأمم والأكوان سُننا لا تتبدل، إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبُه، أو اتصل بالمقربين سببُه، فمهما بحث الناظر وفكّر وكشف وقرر وأتى لنا بأحكام تلك السُّنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ولا تنفر منه"(٣٥).

ثم دعا إلى تدوين ما يسفر عنه التدبر السنني للقرآن الكريم فقال:"وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من ذكرها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها، ولما اختلفت حالة العصر اختلافاً احتاجت معه

---

(٣٢) تفسير المنار، ٤/١١٤.

(٣٣) تفسير المنار، ١/٢٠-٢١.

(٣٤) تفسير المنار، رشيد رضا، ٤/٣٤.

(٣٥) الإسلام دين العلم والمدنية، محمد عبده، ص١٣٢.

إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد، وغيرهما، كانت محتاجة إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية، أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية"(٣٦).

ثم تبعه تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا(١٢٨٢هـ-١٣٥٤هـ) في تفسيره (المنار) والذي كشف فيه عن الكثير من السنن الإلهية من خلال تدبر القرآن الكريم تدبراًسننياً، ويؤكد هذا ما جاء في صفحة غلاف تفسير المنار:"هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول الذي يبين حكم التشريع وسنن الله في الإنسان وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام محمد عبده" (٣٧).

ويقول:"أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والفكر والسير في الأرض لتفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا"(٣٨).

ولقد أولى الشيخ رشيد رضا اهتماماً بالغاً للتدبر السنني لكونه يتوقف عليها مصير الأمم وبناء الحضارات ورقيها وازدهارها أو أفولها وانهيارها، يقول:"عُنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة، ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد(٣٩)، لكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا، ولكننا تركناه، وسبق غيرنا إلى إتمامه واستثماره، فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العمران، وعزة السلطان، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجود حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك، فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة، وأُهمل التاريخ، بل صار ممقوتاً عند أكثر المشتغلين بعلم الدين"(٤٠).

ثم أكد على أهمية التدبر السنني وآثار الأخذ به وإعماله في قوله:"إن العلم بسنن الله -تعالى- في عباده، لا يعلوه إلى العلم بالله-تعالى- وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طرقه ووسائله، أقول: أما العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله فهو معراج الكمال الإنساني، أما العلم بسُننه في خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني: أنه أعم الوسائل لكمال العلم الذي قبله، ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة

---

(٣٦) تفسير المنار، ١٣٩/٤.

(٣٧) صفحة غلاف تفسير المنار.

(٣٨) تفسير المنار، ٢٣/١.

(٣٩) يقصد عهد مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن ابن خلدون الذي وُفق من خلال التدبر السنني للقرآن الكريم إلى استنباط سنن العمران والاجتماع البشري والتاريخ.

(٤٠) تفسير المنار، ٣١١/١.

عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء"[٤١].

ثم يضع يده على الجرح ومناط البلاء الذي أصاب الأمة لما أعرضت عن التدبر السنني، فيقول:"ترى شعوب المسلمين يجهلون هذه السنن، وما ضاع ملكهم وعزُّهم إلا بجهلها الذي كان سبباً لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن، ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات"[٤٢].

ويضيف في موضع آخر يوجه اللوم للمسلمين بسبب تقصيرهمفي التدبر السنني قائلاً:"وقد سبق حكماء المسلمين إلى بيان [بعض السنن الإلهية]، وبدأ ابن خلدون بجعله علما مدوَّنا يرتقي بالتدرج كغيره من العلوم والفنون، ولكن استفاد غير المسلمين مما كتبه في ذلك، وبنوا عليه ووسعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم يستفيدوا منه كما كان يجب؛ لأنه كُتب في طور تدنّيهم وانحطاطهم، بل لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا في إقامة أمر مُلكهم وحضارتهم على ما أرشدهم إليه من القواعد وسنن الله فيمن قبلهم"[٤٣].

ثم يضيف مبينا آثار التدبر السنني وأهمية العناية به قائلاً :"لا جَرَم أن العلم بعوارض الأمم من السعادة والشقاء هو العلم بالإنسان الذي هو أشرف الموجودات في هذا العالم، وهذا أشرف العلوم، وأهم مباحثه ما يشرح أسباب أمراض الأمم وهلاكها، (...)، هذا العلم هو الذي ينير البصائر، ويصلح السرائر، ولكن المسلمين تجاوزوا بأنظارهم آيات الكتاب الكثيرة التي أرشدتهم إليه، والآيات الكونية في الآفاق وفي أنفسهم"[٤٤].

ثم إن سيد قطب –رحمه الله–تابع الشيخ رشيد رضا في التنبيه على أهمية التدبر السنني، ومن يطالع تفسيره "في ظلال القرآن" يقف على هذا التدبر في تفسيره لكثير من آيات القرآن الكريم، يقول رحمه الله: "والقرآن الكريم يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا

---

[٤١] تفسير المنار، ٧/٥٠٠.

[٤٢] تفسير المنار، ٩/٥٧٩.

[٤٣] تفسير المنار، ٨/١١١.

[٤٤] "ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا"، رشيد رضا، مقال منشور في مجلة المنار، ١(١٣١٦هـ–١٨٩٩م)، ص٦٠٩–٦١٠.

على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول"(٤٥).

ويزيد حضاًللمسلمين على التدبر السنني: "إن المسلم ينبغي أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض، بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري والقدرة التي وراءه.." (٤٦).

والله تبارك وتعالى الحكيم ينبه الغافلين إلى تدبر آياته في صفحة الكون وتضاعيفه، في السماء والأرض، وفي الشمس والقمر، وفي الليل والنهار.. وفي مصارع القرون الأولى، وفي قصص الرسل فيهم.. وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود..(٤٧).

والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثَمَّ يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته. ويدركونه بآثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه، من ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً، ويعبدونه حقاً.(٤٨).

ثم يبين حقيقة التلاوة النافعة للقرآن الكريم التي تفضي إلى التدبر الذي نتج عنه عمل وتطبيق وتنفيذ وسلوك فيقول: "وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت، تعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك.." (٤٩).

أما المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي (١٣٢٣هـ-١٣٩٣هـ)، فقد أبدع في سنن النهضة، وفلسفة الحضارة، ولفت الأنظار إلى قضية السنن، في عديد من كتبه التي وضعها تحت عنوان: (مشكلات الحضارة)، ومنها: "شروط النهضة"، و"مشكلة الأفكار"، و"مشكلة الثقافة"، و"ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية"...

لكن الأمة المسلمة اليوم ابتعدت عن ذلك النبع الصافي والمعين المتدفق، فأصابها الويل والثبور، وابتليت بعظائم الأمور، فاحتل العدو أرضها، فعاث فيها فساداً، كما احتل عقول أبنائها فأخرجها عن هدي الكتاب والسنة، بل جعل بعضها وبالاً على مجتمعاتها المسلمة حيث بدأ يرسل سمومه وسهامه الملوثة ونفاياته الفكرية عبرها.

---

(٤٥)في ظلال القرآن، المجلد الأول، الجزء الرابع، ص٤٧٨.

(٤٦)نفس المرجع ، المجلد الثالث، الجزء الثامن، ص١١٨٨.

(٤٧)في ظلال القرآن، المجلد الثالث، الجزء الحادي عشر، ص١٧٥٩.

(٤٨)نفس المرجع ، المجلد الخامس، الجزء الثاني والعشرون، ص٢٩٤٣.

(٤٩)المرجع السابق ، المجلد الخامس، الجزء الثاني والعشرون، ص٢٩٤٣.

إن ابتعاد فكر المسلمين اليوم عن التدبر السنني للقرآن الكريم، وتنزيل تلك السنن على واقع الناس وفق روح المقاصد الإسلامية جعل الأمة في مؤخرة الركب بل خارج المنافسة، وأفقدها الفاعلية والتأثير في العالم.

مسك الختام:

يمكن إجمال أهم نتائج هذا البحث فيما يأتي:

-إن الأمة المسلمة اليوم في أمس الحاجة إلى التدبر السنني أكثر من أي وقت مضى، لتكون بذلك أكثر تبصرا بالأحداث التاريخية والمعاصرة، لاستشراف مستقبل زاهر وبناء مجتمع عمراني إسلامي صالح.

-إن التدبر السنني ضرورة معرفية ومنهجية وعمرانية ووجودية بالنسبة للإنسان، لا يمكن أن يستغني عنه في أي حال من الأحوال، لارتباطه الوثيق بالخلاص الفردي والجماعي.

-إن التدبر السنني للقرآن الكريم يعطينا رؤية كلية تكاملية شاملة للكون والحياة، ويأخذنا في اتجاه جديد صحيح أكثر فعالية وأصالة وتأثيراً، وينقلنا من حالة ترديد آيات لا ندرك معناها ولا مغزاها ولا كنهها إلى تدبر سنني واع يعقبه عمل وتطبيق، وينقلنا من النظرة الجزئية الضيقة للنص القرآني إلى النظرة الكلية المقاصديةالسننية المنضبطة التي تكشف لنا ما وراء النص من سنن وأحكام وقوانين مطردة تنفعنا في مسيرتنا العمرانية الاستخلافية نحو المستقبل المنشود ونحو الحياة الخالدة عند رب العالمين.

-إنه واجب على الأمة المسلمة اليوم أن تقتدي وتتأسى بسلفها الصالح في تدبرهم للقرآن الكريم تدبراًسننياً يرفع همتها ويكشف عنها غمتها، ويعيد لها مجدها وعزتها، وينير لها حاضرها ويشرق شمس مستقبلها.

وعليه، فهل تستيقظ الأمة المسلمة اليوم من سباتها وتنهض من كبوتها وتعيد صلتها بالقرآن الكريم حفظا وقراءة وتدبرا وعملا؟

وهل من همم ترنو للاهتمام بالتدبر السنني وعيا وتأليفا وعلما وعملا؟

وهل من بوادر طيبة لإدراج علم التدبر السنني ضمن المقررات التعليمية الجامعية في مختلف مراحلها الدراسية؟

ثم ألم يحن الوقت بعد لتكون من الأمة المسلمة طائفة من أهل العلم تتدبر القرآن الكريم تدبراًسننياً ثم تقوم بتوعية المسلمين بما أسفر عنه هذا التدبر، حتى يعرفوا مواطن الخلل والزلل، فيعودوا إلى الصراط المستقيم، وإلى طريق العزة والكرامة والرفعة والتمكين.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد وآله وصحبه.

والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع:

١. - **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وبذيله كتاب المغني عن الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار للعراقي (ت٨٠٦هـ)، علق عليه: جمال محمود ومحمد سيد، دار الفجر للتراث، القاهرة-مصر، ط١/١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢. - **الإسلام دين العلم والمدنية**، محمد عبده، تحقيق: عاطف العراقي، دار قباء-القاهرة، ١٩٩٨م.

٣. - **الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده**، إعداد: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط/١٩٩٣م.

٤. - **البداية والنهاية**،أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٥. -**التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين**، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (١)، محمد جابري، قدم له: أبو أسامة المصطفى غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة-المغرب، ط١: أبريل ٢٠٠٣م.

٦. - **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، مصر، ط٤/١٣٧٤هـ.

٧. - **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٧/١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٨. - **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية — بيروت.

٩. - **دروس من القرآن الكريم**، محمد عبده، كتاب الهلال، العدد ٩٦، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م.

١٠. - "**ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا**"، رشيد رضا، مقال منشور في مجلة المنار، ١(١٣١٦هـ-١٨٩٩م).

١١. - **سنن ابن ماجة**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة المعارف الرياض، ط١/د،ت.

١٢. -**السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٣. - **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، أبو اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١/ مارس ٢٠١٠م.

١٤. - **الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء**، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي-بيروت، ط/١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٥. - **صحيح البخاري**، الموسوم ب:الجامع المسند الصحيح من المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجُعفي

(ت٢٥٦هـ)، ضبط النص: محمود محمد نصار، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٤/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٦. - **صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي**، علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٧. - **العروة الوثقى**، جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٨. - **العقل والعلم في القرآن الكريم**، يوسف القرضاوي،مكتبة وهبة-القاهرة، ط: ١٤١٦هـ-١٩٨٦م.

١٩. - **العمل قدرة وإرادة**، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٢: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٢٠. - **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة-مصر.

٢١. - **القرآن وقضايا الإنسان**، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار العلم للملايين، ط٥: تشرين الأول ١٩٨٢م.

٢٢. - **كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية-بيروت.

٢٣. - **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن العريفي ووعبد الله بن عبد الرحمن الهذيل وناصر بن يحي الحنيني وفهد بن علي المساعد، تنسيق: محمد أجمل الإصلاحي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، نشر ضمن سلسلة: آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٨)، منشورات مجمع الفقه الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد-مكة المكرمة، ط١: ١٤٢٤هـ.

٢٤. - **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٢٥. - **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٢: ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

٢٦. - **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٧. - **معجم الألفاظ والأعلام القرآنية**، محمد إسماعيل إبراهيم، تقديم: عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي-القاهرة، ط٣: د،ت.

٢٨. -"**المسلمون وفقه السنن**.."، مقال لمحمد أمحزون، المنشور بمجلة المنار الجديد، السنة السادسة شعبان ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، العدد٢٤، القاهرة.

٢٩. - **المقدمة**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط٢: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣٠. - **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، محمد محمد أمزيان، بيت الحكمة، وجدة-المغرب، ط٣: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٣١. - **موسوعة ألفاظ القرآن الكريم**، محمد عبد المنعم خفاجي، المؤسسة العربية الحديثة-القاهرة، ١٩٨٨م.